صفحات من رواية لم تنشر بعد

السقطة

سهيل كيوان

من شريط الذاكرة

سألها: ها .. بنت أمْ ولد؟

أجابته: وماذا يمكن أن يكون غيرُ هذا أو ذاك؟

ـ بماذا ترغبين؟

ـ كلّه مليح!

ـ صحيح كلّه مليح!

وصمت صمتًا مدويًا. وبعد فترة لا أعرف طولَها قال لها: «هل تتزوجين بعدي إذا متُّ؟»

ردّت: لا أحبّ هذه الأسئلة السخيفة؟

ـ مجرد سؤال! قولي بصراحة، ألن تتزوجي ذلك الصحفيّ، نجم، المعروف؟ لقد أحبَّكِ كثيرًا، أليس كذلك؟ يبدو لي وكأنه لم ييأس منكِ. ولا شكّ أنّه هو الذي يتّصل ويبقى صامتًا على الطرف الآخر من خط الهاتف، خصوصًا عندما أردُّ أنا...

ـ لقد أحبّني وأحببتُه، ولكنّ هذا كان قبل معرفتي بكَ. والصحيح أنّه ليس سيئًا. أنا لا أحبّ الكذب. أعتقد أنّ من حقّي أن أتزوج إذا متَّ أنتَ، رغم أنني سأحزن عليك كثيرًا!

ـ أحقًا ستحزنين؟!

ـ الحزنُ على زوجٍ مات لا يعني تحوُّلَ الزوجة إلى راهبة. وبالتأكيد لو سبقتُكَ أنا إلى الموت فلن تنتظر حتى ختمة الأربعين كي تتزوج. هكذا أنتم الرجال! ولكنْ، ما ضرورة هذا الكلام الآن؟

ـ الموت أمر طبيعيّ، وعلى كلّ عاقلٍ أن يفكّر فيه.

قالت: حين يأتي ملكُ الموت فأهلاً وسهلاً به، أما الآن فدعنا نفكّر بالحياة.

ردّ معاندًا: لأجل الحياة نفكّر بالموت. أصلاً لا قيمة للحياة بدون الموت.

فردّت بتذمّر: غسان، لستَ كما كنتَ! أين غابت روحُكَ المرحة والمقبلة على الحياة؟ في الأيام الأخيرة تغيَّر فيكَ شيءٌ ما.

ـ صحيح، وأستغرب أنّ العالم كلَّه لم يتغير! ما حدث يزعزع قلبَ الحجر الأصمّ. أشعر أنّ شيئًا ما في داخلي قد تحطّم بل طُحن طحنًا. أشعر أنّي خُدعتُ طيلة حياتي. صورة ذلك الطفل لا تفارقني أبدًا، وسيْلُ الأسئلة لا يتوقف أبدًا: كيف استطاعوا أن يفعلوا هذا وهم يروْنَه يحتمي وراء ظهر أبيه؟ أيُّ عيون تلك التي اشتهت رؤيةَ ذلك المشهد الرهيب؟ ترعبني هذه الشهوةُ المخيفةُ إلى الدم. أُصاب بقشعريرة عندما أُدركُ أنّ مَنْ فعلوا هذا هم بشر مثلنا. وهم طلقاء: نراهم، وقد نجلس معهم في مقهى، ونسافر إلى جانبهم في قطار أو طائرة، وقد يركبون معي في سيارتي أَنْقلهم حيث يَطْلبون، ولهم بالتأكيد أُمّهاتٌ وآباء يدلّلونهم ويقبّلونهم ويَدْعون لهم بالتوفيق، وربما لهم أطفالٌ أبرياء يحبّون الهمبرغر والكَتْشاپ على البطاطا المقلية، مثلَ ذلك الطفل تمامًا! صرخةُ «مات الولد.. مات الولد» تطاردني، تحاصرني، ورعبُ الطفل يَهْرس مشاعري، لا أستطيع أن أمحوَه من ذاكرتي. نعم منذ تلك اللحظة يلحّ عليّ سؤال، بل أسئلةٌ كثيرة: ماذا تعني كلمة «إنسان»؟ هل يكفي أن أسير على قائمتين كي أصبح إنسانًا؟ ثم لماذا نَفْرض حياةً بهذه الحقارة على بعضنا البعض؟ ألم يَفْرضْها ذوونا علينا، وفَرَضَها ذلك الوالدُ على طفله الذي لاقى ذلك المصيرَ الراعب؟ لقد كشفناها، لقد افتُضح الأمرُ تمامًا، فلماذا نفرضها نحن بدورنا على غيرنا بعد أن خَبِرْناها؟

ـ ما الذي تقصده؟

ـ ما دامت الحياةُ بهذه القسوة، بل بهذه التفاهة، فما ذَنْبُ هذا الذي ينمو في أحشائِكِ؟ قد تقولين يا زينة إنّني مجنون، لكنّني صرتُ أتخيّل الذئابَ والضباعَ في الغابات هاربةً من بني البشر. أتخيّلها تحذّر بعضَها البعض: «أختي الضبعة! أختي الذئبة! أختي الأفعى! إذا رأيتِ كائنًا يقف أو يسير على قائمتين فلا تنتظري أبدًا. الجإي إلى أقرب مكانٍ يَصْعُب الصعودُ أو الدخولُ إليه. واذا لم تجدي فلوذي بالفرار.»

ـ لقد جُننتَ يا غسان!

ـ أنا الآن في كامل وعيي. بل أَشْعر وكأنّني صحوتُ من غيبوبة طويلة، من خدعة. حبيبتي زينة، اسمعي نصيحتي، وتعالي نُرِحْ هذا الذي ينمو في داخلك قبل أن يكتملَ ويخرجَ ويتورّط !

ـ هل أنت جدّيّ؟

ـ ليس في أمرٍ كهذا مزاحٌ. بالتأكيد سوف يلعننا الأبناءُ. إنّ دَفْعَهم إلى عالمٍ كهذا فضيحةٌ، خطأٌ، عار! يبدو لي وكأنّنا نعاقبهم حين نُخْرجهم من بئر الراحة الأبدية إلى عالم ساديّ ولئيم.

ـ هذه أقوال المهزومين اليائسين!

ـ إذًا، دلّيني أيّتها الأم «الشجاعة» كيف يتصرّف المتصرون المتفائلون؟

ـ ألم تسألْ نفسكَ من هو هذا الجنين؟

ـ إنّه كائن تعس آخر سيتعذّب ثم يرحل... طبعًا بعد أن يَشْتمنا على فعلتنا المشينة بإحضاره إلى هذا الجحيم.

ـ بل إنّه أنا وأنتَ، ولكنْ في طبعةٍ جديدةٍ واجبُنا أن ننقّحَها ونحسّنَها. إنّ قتل الجنين هو عمليةُ انتحارٍ لكلينا. حياتُنا مستمرة ما دمنا استمررنا في إنتاج أنفسنا... مثل النخلة التي تخلّف وتطلق قبل انهيارها، فتنشأ مكانَها نخلةٌ جديدةٌ، هي نفسُها في الواقع!

ـ جميل جدًا. كان يجب ان تكوني فيلسوفة، لا رسامة!

ـ على فكرة لقد رسمتُ الجنين! رسمتُه كما تخيلتُه. أُنظرْ هناك! هل أعجَبَكَ؟

ـ إنّه يبدو مثلَ رأس ثوم، لا جنين إنسان!

فجأةً أدركتُ أنَّهما يتحدَّثان عنّي. هكذا إذًا! هذا المجرم المدعوّ غسان يحثُّها على التخلُّص منّي! بصراحة خفتُ. لم ترتعد ركبتاي فقط، بل كلُّ ما تكوَّنَ من جسدي أيضًا. حتى الأنف شَعَرَ بالخطر المحدق. إنّهما يتشاوران للقضاء عليّ. قُولي لي، بربِّك، ما هو شعورُكِ إذا سمعتِ ماما وبابا يتشاوران للقضاء عليكِ؟! وما ذنبي كي يقضيا عليّ؟ هل صحيح أنّهما غيرُ قادريْن على حماية الأطفال؟ غسان لا يقدّر الجهدَ الذي بُذِلَ في تكويني طيلةَ خمسة أشهر. ما أسخفَه! بعد أن أصبحتْ ملامحي واضحةً يريد التخلُّص منّي؟! كان عليه أن يعترضَ منذ البداية، أن يعترضَ على نفسه لو استطاع(...)

ولكنّه عاد ليقول لها ببرود: إنّ خيرَ حماية للأطفال في هذا الزمن هو وقفُ سفرهم من المحطة الأولى. يجب القضاء على الجنين قبل خروجه إلى الغابة!

شعرتُ بالاختناق، بل بالاشمئزاز والقرف. ما أثقل دمه! بعد أن مُنحتْ له الحياةُ بواسطة آخرين بلا شكّ، يحاول حرمانَ الآخرين منها؟! انتظرتُ إجابتها. الثواني التي ردّت فيها كانت دهرًا.

قالت له: أعتقد أنّ التخلُّص من الجنين في هذه السنّ محرَّم، بل جريمة!

تنفّستُ الصعداء بدون رئتين، ورأيتُ فتحةَ أمل كبيرة. ولكنّه ردّ بجلافة: الحرام والحلال لا يهمّانني كثيرًا الآن!

ردّت بعصبية: حتى الدِّينُ يحرِّم قتلَ الجنين منذ بداية الأسبوع السادس، وأعتقد أنّ هذا لم يكن عبثًا!

عندما سمعتُ هذا فرحتُ كثيرًا، وسألتُ نفسي فورًا: ما هو الدين؟ كلُّ احترام لهذا الذي وضعه كي يحميَ أمثالي من الضعفاء، وسوف أمنحه جائزةً أو هديةً في أول فرصة! أتذكّر الأسابيعَ الستةَ الأولى. نعم، طُولي لم يكن أكثر من سنتيمتر واحد، ووزني على ما أعتقد لم يتجاوز غرامًا ونصف الغرام. لنسمِّ الأشياءَ بأسمائها: إنّها عمليةُ قتل على كلّ حال، لكنَّها كانت ستكون أسهل بكثير وإنْ بقيتْ بالنسبة إليّ جريمةَ قتل! على كلّ حال لقد صرتُ في عزّ شبابي: فطولي الآن حوالى ٢٥ سنتيمترًا، ووزني ثقيلٌ جدًا، لا أبالغ ولكنَّه ربما تجاوز الـ ٨٠٠ غرام، وقلبي نابض بالحياة، ولي وجه وأطراف وأمامٌ وخلفٌ وتحتٌ وفوق! كيف يتحدَّث هذا المهووس عن القضاء عليّ؟ إنّ قتلي الآن جريمة. جريمة بكلّ معنى الكلمة!

لكنّه عاد ليقول لها:

ـ يُضْحكني أمرُ الدِّين الذي يحرِّم قتلَ الجنين، وباسمه عَرَفَت البشريةُ أشرسَ وأقذرَ حروبها! على كلّ حال، بإمكانكِ إسقاط الجنين بالقفز فوق الحبل!

لو كنتُ قادرةً على الصراخ من هناك، لصحتُ به: أنتَ يا...! أنت جاهل وأحمق يا غسان! أيُّ لعبٍ وقفزٍ وحبالٍ بإمكانها إسقاطي؟ لم يعد الأمرُ لعبةً كما تعتقد. وعليكَ أن تعرف أنَّكَ إذا حاولتَ تنفيذَ هذه الجريمة فسوف أدافع عن نفسي بكلِّ ما أوتيتُ من قوة!

يبدو كأنَّها أحست بتحذيري هذا، إذ قالت له بصوت قويّ وبحزم: «أَخْرِجْ هذا الوسواس من رأسك، لن أُسقط الجنين!» قلبتُ رأسي إلى أسفل وقدمي إلى أعلى احتفاءً. حرّكتُ أصابعي ورفعتُ يدي لأحييها. زينة، أيَّتها الشجاعة، أيَّتها البطلة، إنّي أحبُّكِ منذ هذه اللحظة إلى الأبد! وما أقسى غسان هذا! يتحدث عن قساوة العالم الذي سيُنقذني منه! ولكنْ كيف؟ بقتلي! وإنْ قتلني، فبماذا يختلف حينئذ عن أولئك الذين قال إنَّهم اصطادوا طفلاً من وراء ظهر أبيه؟

[...]

التراساوند

ويدٌ تمتدّ نحوي، تكاد تلامسني. لا تَفْصل بينها وبيني مسافةٌ كبيرة. تقول له: «انتبه إلى الشارع، هذا ليس وقته!» دقات قلبها تسارعتْ فجأة، واضطربتُ أنا. حدث شيءٌ ما. زينة صرختْ بجزع، وأنا جزعتُ مثلَها وأكثر. «كدتَ تصطدم بالسيارة التي أمامك،» قالت زينة، «انتبهْ وأبعدْ يَدَكَ عني!» ضحك ضحكةً غريبةً هشّمها الخوف، ولكنّه كفّ عن اللمس، بينما غرقتُ أنا في التفكير: ما هي السيارة؟ كيف شكلُها؟ ولماذا كادت أو كاد أن يصطدمَ بها؟ ولماذا هذا الجزع من الاصطدام؟ ولماذا لا تريده أن يلامسها؟

بعد دقائق وصلنا إلى المكان الذي أعتقدُ أنّها أتت إليه من قبل. هنا يختفي صوتُ غسان تمامًا، وزينة تمضي وحيدةً، ترتقي إلى أعلى. لا بدّ أنّها درجات كثيرة. تلتقي هناك على ما يبدو بأمثالها، ويبدأْنَ أسئلةً وأجاباتٍ كثيرة: صبيّ ـ ذَكَر ـ عريس ـ عروس ـ أنثى ـ بنت ـ توأم ـ التهاب ـ مانع للحمل ـ لَوْلَب ـ رحم ـ عملية قيصرية ـ دواء ـ إسقاط ـ في السادس ـ السابع ـ مستشفى ـ حالك ـ صحتك ـ دورة ـ زوجكِ ـ زوجي ـ شهرك ـ شهري ـ التهاب ـ شفط في البول ـ رمل ـ كلى ـ موت ـ حياة ـ موت. وطال انتظار زينة. خرج منها كلامٌ كثير، واستُقبلتْ أكثرَ بكثير ممّا خرج، إلى أن خَفَتت الأصواتُ وكأنّها صارت وحيدة. حينئذ دخلها صوتٌ ما، بل ولامَسَ جسدَها؛ إنّه قريب مني، لا يَفْصل بيني وبينه سوى جدار رقيق. قال: إنّكِ تسمنين يا سيدة زينة! استلقي على السرير.

قالت: من الآداب أن لا تَنْظر، وأن تَفْحص فقط بواسطة اللمس!

قال: رجاءً لا تعلّميني شغلي. لا تتحرّكي. أنظري إلى الشاشة.

كانت حركتُه قريبةً منّي جدًا. ضغط على منطقة قريبة منّي. يضغط ثم يرخي. وبعد عدة هجمات كهذه قال: ستكون لك عروسٌ جميلة!

ـ أنظرْ جيدًا يا دكتور!

ـ هذا واضح. إنّها أنثى. أنظري معي إلى الشاشة. هذه عينُها، وهناك يداها. إنّها ترفع يدها وتقول لكِ مرحبًا! قولي لها أهلاً!

هذا الذي اسمُه دكتور ضغط بعنف. ضغط مرّة أخرى. ما الذي يريده؟ وما هذه الغلاظة؟ إنّه يضحك ويمزح معها. ولكنّني شعرتُ بقلق بسبب الضغط الذي فاجأني به. وبعد قليل شكرتْه ووقفتْ، بينما تشقلبتُ أنا جرّاء الصدمة، ودُرتُ أكثرَ من دورة. لقد عرفتُ أنّ حالتي تدعى أنثى.» ولكنْ فاجأتني زينة بقولها: «ماشي الحال، فلتكن عروسًا.» لماذا لم تندبْ زينة؟ لماذا لم تصرخ؟ وهل يرضيها أن أكون، كما قال الدكتور، «أنثى»؟ يا ويلي، كيف ستفعل مع كلّ أولئك الذين قالوا لها «إنْ شاء الله عريس؟»(...)

بعد دقائق استقبلها غسان قائلاً: لماذا تأخّرتِ؟

أجابت لاهثةً: كان الدورُ طويلاً!

قال غسان بتذمُّر: ساعة كاملة! لن أرافقكِ بعد اليوم إلى هنا. في المرة القادمة فلتأتِ صديقتُكِ جوليا أو غيرها معكِ. لماذا هي صديقتُكِ؟ أو اذهبي وحدك! ليس لديَّ وقت لأهرقه في الانتظار.

ـ ولكنْ أليست مهنتُكَ نَقْلَ الناس بسيارتك؟ لو كنتُ غريبة لنقلتَني بمحبة! هل تريد أجرتك؟ سوف أعطيك أجرتك!

ـ لكنّني لا أطيق الانتظار ساعةً كاملة، حتى عندما تكون مدفوعة الأجر. في هذه الأيام صرتُ بحاجة إلى كلّ شِيكل. العمل صار نادرًا؛ لقد انخفض إلى أكثر من النصف. منذ بداية الانتفاضة قاطَعَنا اليهودُ. إنّهم لا يتنقلون إلاّ مع السائقين اليهود! يسألون السائقَ عن هويّته قبل الصعود إلى السيارة. فإذا كان عربيًا رفضوا السفر معه، إلاّ ما ندر. أَسمعَهُم يطلبون من مدير المحطة إرسالَ سيارة شرط أن يكون سائقُها يهوديًا! لقد ضاعت الثقةُ التي تراكمتْ بيننا وبينهم عقودًا كأنَّها لم تكن. لقد نجح جنرالاتُ الحرب بتدمير كلّ شيء. أما السياحة فتعرفين قصتها. أيُّ مجنون يأتي سائحًا إلى بلادٍ غارقةٍ في الحقد والكراهية والدماء؟

ردّت زينة: بإمكاني أن آتي إلى الدكتور لوحدي في المرة القادمة. أسافر في الباص.

قال: أردتُ راحتَكِ!

ـ هكذا تتعبني!

ساد صمت، وبقيتُ متوترةً بانتظار ردّ فعله. كيف سيردّ عندما تُخْبره بأنّ ما تَحْمله في أحشائها ليس العريسَ الذي ينتظره الجميع؟ مسكينة زينة. اضطربتْ وكادت تتقيأ. ويبدو أنّها قررتْ أن لا تخبره إلاّ إذا سألها. وبعد صمت طال قال لها فجأةً، ولكنْ بصوت فيه شيء من الحنان: ها، طمأنيني، ماذا زرعنا؟

ـ أتريد أن تعرف؟

ـ طبعًا أريد ان أعرف! (ولامس جسدها محاولاً أن يرضيها كأنَّه يعتذر بعد إزعاجها).

ـ عروس!

ـ عروس؟

ـ نعم، عروس!

ردّ بصوت جفّ فجأةً: ماشي الحال. عروس عروس! نعمة كريم ..

وصمت!

[...]

اللحظة الحاسمة

ما الذي طرأ عليّ الآن؟ وما هذه الحركة الغريبة؟ أحسستُ أنّ قوة كبيرة حاولتْ دفعي بفظاظة، ثم عاد الهدوء. هل حدث هذا بالفعل، أَمْ أنَّني واهمة؟ وفجأةً عادت الحركة المريبة من جديد. الآن انتهى

كلُّ شك، وأيقنتُ أنّ ما حدث حقيقة: إنّه محاولة لإخراجي إلى المجهول. وبدأتْ هذه الدفعاتُ المتباعدة تتقارب أكثر فأكثر. قوةُ دفع تصعب مقاومتُها تحاصرني وتحاول قذفي بشراسة، بل بوحشية. لم أُردِ الخروج. لا توجد جريمة أكبر من طرد إنسان من مسكنه، بل من طرد أيّ كائنٍ لا الإنسان فقط !

بدأ المكان يتصدّع. تخلّع بابُ منزلي الذي أقمتُ فيه كل هذا الزمن. الإناء يتألّم، يصرخ. الضغط عظيم، والألم أعظم. أقاوم بكل ما أوتيتُ من قوة. وفجأةً انفجر السدّ، فاضت البحيرة، تدفّق السائلُ إلى الخارج! لم يبق لي خيارٌ آخر (...) صرتُ أضغط برأسي على جدران الإسفنج المرتعدة توترًا من حولي. كنتُ جزعة، وكان صوتٌ ما يقول: «تنفسي.. شدّي .. مثلما تتغوطين.» الإناء يصيح: «أريد أن أموت. أريد أن أموت.» وفجأةً حدث أمر غريب. حدث ذلك الذي كنتُ أخشاه. أنزلق رأسي إلى الهاوية، وكأنّ الإناء انشقّ إلى نصفين.

ولكنْ لم ينتهِ الأمرُ هناك؛ فقد علقتُ على المدخل! ما أقسى أن تَعْلقي على الباب، لستِ هنا ولستِ هناك! إنّكِ لا تستطيعين أن تكوني في عالمين في آن. بدأتْ تصلني أصواتٌ مزعجة ومؤذية. رجاءً، قليلاً من الصمت أيُّها العالم الغريب! سمعتُ صراخًا هستيريًا يأتي من بعيد، وقد استغرقني وقت طويل لأدرك أنّ الذي يصرخ هو الإناء الذي عشتُ في داخله، وكأنّ كل ما فيه يبكيني مودِّعًا. ولم يطل الوقتُ حتى أدركتُ أنّ هذا الأناء هو زينة، هو ماما! وأدركتُ أنّ الصراخ يحدث بسببي. لا أذكر كم مرّ من الوقت وأنا في هذه الحالة، حتى اعتقدتُ أنّني لن أخرج من هنا أبدًا. اعتقدتُ أنّي سأعيش هكذا، بين الداخل والخارج. وفجأة انزلقت الكتفان، ثم انزلقتْ بقيةُ الجسد. بالطبع كنتُ مُلطَّخةً بالمياه التي قضيتُ فيها تسعة اشهر، ولكنْ ما أهمية ذلك؟! كنتُ على ثقة بأنّي سأختنق. شعرتُ بلطمة على مؤخرتي، وصرخت الرئتان: «الآن تعرفين قيمتي» وانتفختا(...) السائل الذي ملأ مجرى التنفس خرج من الرئتين ومن القصبة الهوائية دون مشاكل تُذكر. لم أفهم أنّ مهمة المشيمة قد انتهت، لهذا صرختُ وأنا أراها تُقطع. هذه رفيقتي، مصدرُ حياتي. قطعوا الحبل وربطوه بملقط. فُتحتْ عيناي وقُطِرَ فيهما بعضُ نقاط من سائل، ومُسح جلدي بدهنٍ ما. وسمعتُ مَنْ يقول: ««مبروكة. مبروكة العروس. إنّها جميلة وقوية!» ثم ضحكات متواصلة.

[...]

قبلة

إنّها الليلة السابعة منذ رحيلي عن موطني الأول. «الملائكة تحفّ بي من كل جانب،» «الملائكة لا تميّز بين عريس وعروس...» هكذا سمعتهم يقولون.

انتبهتُ على وقع خطوات، فرأيتُه. ضايقني شيء كان ينبعث من بين شفتيه إلى فضاء الغرفة. كان مشهدُ ما يخرج من فمه جميلاً. كانت سحبٌ منه تتسارع إلى السقف، وما إنْ تتمدد في فضاء الغرفة حتى يرسل دفعةً جديدةً منه.

«الدخان هنا ممنوع،» صاحت زينة!

إذًا هذا هو الدخان. لقد نسيتُ أيامَ تدخينها ومضايقتها لي. تقدَّم منِّي، تقدَّم كثيرًا. مدّ ذراعيْن عملاقتين ورفعني بهما من السرير. هيَّأتُ وجهي لحركة البكاء. هذا الذي يُشْبهني مخيف. قَبَّلني. على وجهه زروعٌ حادَّةٌ آلمتني. على الأرجح أنَّه لم يفهم أنّ أشواك وجهه تؤذيني. كان سعيدًا وهو يحكّ وجهه الخشن بوجهي الطريّ. بكيتُ كي أتخلَّص منه. ليتني أعود حيث كنت. ضايقه بكائي. قال «شششش..» محاولاً إقناعي بالسكوت. لكنّ طريقته لم تعجبني. قرّب شفتيه من وجهي وقبّلني مرة أخرى. ضايقتني رائحةُ شفتيه! لقد حصلت القبلةُ منه بعد سبعة أيام من ميلادي، أقصد ميلادي الثاني! كانت هذه هي القبلة الأولى من غير ماما. كان النور القويّ قد أتى واختفى سبع مرات. أنتظر سبع مرات مجيءَ النور القويّ واختفاءَه ليقبّلني. إذًا سيقبّلني في كل سبعة أيام مرةً! كانت المرارة في نفسي عميقة. عَدَدْتُ كلَّ نبضة في صدري وكلَّ نفَسَ من أنفاسي. حاولتُ الخروج من اللفائف البيضاء. مددتُ أصابعي ودغدغتُ بأظافري الطرية وجهَه. فرح كثيرًا. سمعتُ دقات قلبه وأنفاسه. ولكنّ نظراته كانت حزينة، لا أعرف لماذا. لماذا الحزن؟ لماذا لا يكون قريبًا منّي؟ أعتقد أنّي سمعتُه يهمس لي كأنما يبوح بسرّ في آخر الليل:

ـ سامحيني يا سامرة، لقد حُكِم على سائقي سيارات الأجرة أن يركضوا ليلَ نهار. ما كان يجب أن تأتي إلى هذا العالم الآن! كان علينا أن نؤجِّل مجيئكِ! كان علينا أن ننتظر حتى تتحسن الأمور. لكنّ أمك العنيدة أرادت هذا.

كدتُ أبكي، فقبّلني مرةً أخرى، هذه المرة بحنان. لقد نجحتُ في جعله يقبّلني أكثر وأكثر. عانقني بحنان شديد وكأنَّه يخشى عليّ من الضياع. شدّ على أضلعي حتى آلمني، فبكيت. فَهِمَ ضيقي وأرخى، فاسترخيت. استيقظتْ زينة، واستغربتْ أنّنا يَقِظانِ، فسألتْه: ما بك؟ لماذا أنت مستيقظ؟

ـ هكذا!

ردّت: أنتَ تخفي عنّي أمرًا. قلْ ما الذي يقلقك!

ردّ: وهل تقبيلي لابنتي يعني أنّني قلق؟ لا يوجد أيُّ داع للقلق! نامي أنتِ!

لكنّ زينة جلستْ في السرير الذي صارت مفاصلُه تصطكّ، وأشعلت النورَ فتأذّت عيناي، وراحت تتأمّله ويتأمّلها. وبعد قليل من الصمت دنا منها وجلس إلى جانبها وقال:

ـ العمل على سيارة أجرة أصبح مثلَ طحن الحجارة بالأسنان. أشعر بشيء يقبض على حلقي ويمنعني من التنفس. إنّي أختنق يا زينة!

ـ قل الحمد لله لأنّك من المحظوظين! جميع الناس يحبونك، ولديك عمل تعتاش منه في زمن البطالة. صحيح أنّ وضع السائقين هذه الأيام صعب، ولكنْ لا بدّ من العودة إلى الأيام الجميلة. ستعود مدينتُنا لتمتلئ بالسائحين والسائحات، ويعود الناس إلى العمل والازدهار، ويتعامل العربُ واليهودُ بعضُهم مع بعض باحترام وثقة، وتعود الحياة إلى جمالها الذي نعرفه.

ـ الوضع من سيء إلى أسوأ! صرتُ أشتهي أن أرى سائحًا في مدينتنا. لقد خَرَّبَ جنرالاتُ الحرب كلَّ شيء. إنّهم يقتلون كلَّ يوم المزيدَ من الأطفال ومن الناس بشكل متعمّد. إنّهم يريدون أنهارًا من الدم كي يَسْتحكم العداءُ بين العرب واليهود أكثر وأكثر. الجنرالات يا زينة ليسوا مثلنا. أنّهم يفكّرون كيف يخلّدهم التاريخُ ولو على حساب ملايين البشر.

ـ كان الله في عون مدينتنا. السائحون يبحثون عن الأمن والراحة، وبلادنا تنزف وتتألم، والعالم يرى ويسمع.

في هذه الأثناء أفرغتُ ما بجوفي من فضلات وريح. وفجأةً سمعتُه يقول: أعتقد أنّ ما خفتُ منه قد وَقَعَ يا زينة!

فردت مندهشة: وما الذي خفتَ منه!

ـ لا .. لا داعي للتفاصيل!

فأجابت مصرّةً أن تعرف: ما الذي يقلقك؟

ـ لقد حدث ما كنتُ أخشاه. أعتقد أنّني قد تورّطت!

ـ وبماذا تورطتَ؟

ـ تَذْكرين يوم ميلادها، يومَ زرتُكِ في المشفى وقلتُ إنّهم اتّصلوا بي لنقلية خاصة؟

ـ أَذْكر!

ـ لقد استُدعيتُ لنقْلِ فتاتين قالتا إنّهما تبحثان عن محام. لم يبدُ عليهما أيُّ مظهر مريب. وفقط بعد أن نزلتْ إحداهما من السيارة بعد دقائق، ولم أكن قد ابتعدتُ بعدُ سوى مئات الأمتار وبرفقتي الفتاة الثانية، حَدَثَ ما كنتُ أخشاه!

ردَّت بذهول: ما هذا الذي كنتَ تخشاه وحدث؟

لم يجب وطال صمته.

ـ لا تُخِفْني يا غسان! ما الذي حدث؟

ـ حدث ما توقّعتُه وخشيتُ منه دائمًا! حدث ما يخشاه كلُّ سيارة أجرة في هذه الأيام!

ـ وكيف نقلتَهما بسيارتك؟

ـ لقد نقلتُهما دون أن أدري نيَّتَهما. بعد فوات الأوان أستوعبُ حديثَهما عن الرغبة في الانتقام طيلة الطريق. كانت تركت السيارة هي التي تتحدث. قالت: «كانوا جنودًا لم الشعرُ على وجوههم بعد.» وقالت: «أمروا شقيقي بخلع ما ليبقى عاريًا إلاّ من الكلسون.» وقالت: «أمرونا بالنزول إلى بعمق قامة الرجل، حيث قضيْنا ليلتَنا الباردة، وكلما توسّل الجنود بإطلاق سراحنا قام أحدُهم بإخراج عضوه مهدِّدًا با علينا. وفي اليوم التالي أَطلقوا سراحَنا، إلاّ أنّ شقيقي ا للمشي أمام الرائحين والغادين بالكلسون.» قالتا أيضًا إ جاءتا للبحث عن محام لتقديم شكوى ضد جنود الحاجز. ول المحامي سوى الانفجارِ الرهيب الذي سمعتِ عنه!

ـ اِذهب إلى الشرطة حالاً وأَخْبرهم بالذي حصل. أنتَ لست سائق سيارة أجرة، لا ذَنْبَ لك!

ـ سيعذِّبونني حتى يُخْرجوا منِّي اعترافًا بذنْبٍ لم أرتكبه!

ـ اذهبْ الآن وأَخْبرهم، وهذا سيكون أفضل لأنّهم سيعرفو شيء. هذا أمر سهل جدًا!

ـ أنا في دوّامة يا زينة. أتذكرين قبل أشهر عندما طَلبتْ إسقاطَ الجنين؟ كنتُ أخشى من لحظة كهذه. كأنّني كنتُ على مع ما حدث! الأمر كان غايةً في الوضوح. الكارثة لا بد أن تح

ـ لا تنم يا غسان، اِذهب الآن، وأَخْبِرْهم بالذي حصل معك اتُّهِمْتَ بالتواطؤ والمساعدة على القتل والخيانة. سَلِّمْ نفس غسان قبل أن يُقضى عليكَ وعليَّ وعلى مصير هذه المسكين سكوتَكَ الآن لم يعد مجديًا!

[...]

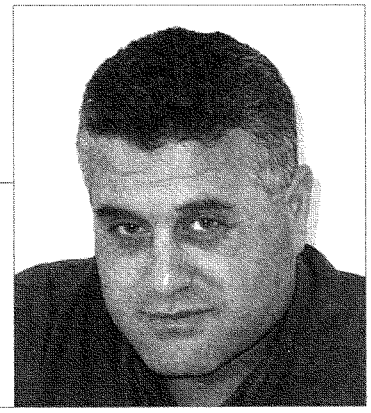

سهيل كيوان (مجد الكروم ـ ١٩٥٦):

يعمل محررًا أدبيًا في صحيفة **كل العرب** الصادرة في الناصرة. له سبعُ مجموعات قصصية وروائية. فائز بجائزة مؤسسة توفيق زياد للثقافة والإبداع عن دراسة **غسان كنفاني: الجمال الحزين ـ العطاء المتوهج** (تحت الطبع).